

مراتب النفس

للنفس في تطورها إلى الكمال سبع مراتب يسميها القوم مقامات. والنفس هي واحدة وتسمى بأسماء تضاف إليها بحسب تدرجها في الكمال، رتبها شيخنا السيد محمود أبو الفيض المتوفى كما يلي: ^(١) (النفس في مرتبتها الأولى تسمى أمانة بالسوء، وهي التي تميل دائماً إلى الغرائز والشهوات. ﴿إن النفس لأمانة بالسوء﴾. فإذا جاهدتها صاحبها وخالفها، فعنت لسحق، واجتنبت المحظورات، قد ترجع إلى سابق طاعتها، وتلوم نفسها. وحينئذ تكون النفس في المرتبة الثانية، وهي اللوامة، قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ إذا أخذها صاحبها بالمجاهدة والثبات على الحق، مالت إلى عالم القدس وبصّرها الله بمواقع فجورها وتقواها.

(١) انظر كتاب «معالم الطريق إلى الله» ص ٢٨٥/٢٨٦. وكتاب «لمع اليفير في الكشف عن مناهج الفيضين» ص ٤٢/٤٣.

وحينئذ تسمى بالنفس الملهمة وهى الرتبة الثالثة. قال تعالى : ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾ فإذا اطمأنت إلى أوامر البصيرة وتبدلت صفاتها المذمومة بالصفات المحمودة تخلقت بأخلاق الله، وسميت حينئذ النفس المطمئنة، وتلك هى الرتبة الرابعة، قال تعالى : ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾. وهذه الدرجة هى أوّل الهدى الأعظم ومبدأ طريق الوصول إلى الله. فإذا أدركت السالك العناية ورضيت نفسه بأفعال خالفها - عطاءً، ومنعاً، وابتلاءً، واجتباءً - حينئذ تسمى راضية، وهى المرتبة الخامسة. وهنا تبدو له حجب من الأنوار بعد أن كانت من الظلمات. فإذا كان عمله طاعة واحتسناً وصلاً إلى الله سيئاته حسناً، وفتح على نفسه أبواباً من التذوق والإلهامات والتجليات، سميت عند ربها مرضية، وهى المعنية بقوله تعالى : ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾، وهذه المرتبة السادسة. فإن نادته ظلال الموجودات الإمكانية التى يستوى فيها طرفاً الوجود والعدم ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ سمع لسان حالها يقول : ﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾ ثم علم علم اليقين أن الأطياف لا تغنى عن الأنوار، وأن المظاهر لا تثنى العنان عن الحقائق وأن ما ماله للفناء لا يغنى شيئاً عما ماله للبقاء، سمع النداء حينئذ من بارئ الأرض والسماء : ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾، ويكون مجلسها حينئذ فى مقعد صدقٍ عند

ملك مقتدره. وفي هذه الرتبة تكون الكمالات لها نعتاً وسجية؛ ولذا تسمى هذه الرتبة بالنفس الكاملة وهي السابعة. «وهناك ما لا عير رأته، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

والكمال ههنا، وعلى هذه الأرض، كمال نسبي. فأقل الناس نقصاً أكثرهم كمالاً، وأن أكمل الخلق هنا أدراهم بعيوب نفسه. وعن أبي حنيفة عن خالد بن يزيد بن سعيد عن أبي هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية : ﴿قد أفلح من زكّاه﴾، وقف ثم قال : «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها فأنت خير من زكّاه».

والنفس بهذا المعنى في توضيح آيات القرآن أقرب إلى تفصيل علماء النفس عنها، ووصف محالاتها من الغرائز والحاجات، وأقسامها من النفس الباطنة أو «الهوى» أو العقل الباطن، والنفس العليا أو الأنا الأعلى، والنفس الوسطى أو النفس المتطورة، وكلها مجالات للنفس كما وصفها القرآن. ولا شك أنها غير الروح التي يقول القرآن عنها : ﴿قل الروح من أمرى﴾، وغير الروح التي يقول عنها : ﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾. وذلك له مجال آخر..

ويذكر ابن الفارض ثلاث أحوال لنفس في معراجها الروحي يصح أن نصف الأولى منها بأنها عادية طبيعية، والثانية بأنها غير عادية وغير طبيعية، والثالثة بأنها فوق العادة وفوق الطبيعة.

والأولى هي حالة الشعور أو الوعي التي يتمتع بها الناس جميعاً في أثناء يقظتهم. وهذه متعددة النواحي، وهي التي يطلق عليها الصوفية «حالة الصحو».

والثانية هي فقدان ذلك الوعي أثناء الوجد الصوفي وهي المسماة «حالة السكر».

والثالثة حالة وعى ثان يرتفع فيها الوجد الصوفي إلى أعلى درجاته وهي المسماة حالة «صحو اجمع» أو «الصحو الثاني»^(١).

* * *

ولقد جعل العلامة شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية للنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

«وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً. لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجثة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً. وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية. ولها بعد المفارقة صحة

(١) عن كتاب «في التصوف الإسلامي وتاريخه»، تأليف الأستاذ ريسولد نيكولسون وترجمة الدكتور أبو العلا عفيف سنة ١٩٥٦.

ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهناك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة. وهناك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها:

الدار الأولى: في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث^(١).

والدار الثانية: هي الدار التي نشأت فيها وألقتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة.

والدار الثالثة: هي دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

والدار الرابعة: هي الدار التي لا دار بعدها، دار القرار، وهي الجنة أو النار. والله يقرها في هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها. وهي التي خلقت لها وهيت للعمل الموصول لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى. فتبارك الله فاطرها

(١) المشيمة، والرحم، والبطن.

ومنشئها ومحبيها ومعيها ومسعدھا ومشقيها، الذى فاوت بينها فى درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها فى مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغى شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والمقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه. وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله. وأن الذى جاءوا به هو الحق الذى تشهد به العقول، وتقرّ به الفطر، وما حالفه هو الباطل، وباللّٰه التوفيق»^(١).

* * *

وبعد..

إن الحديث عن النفس طويل طويل لا ينتهى إلى حدّ، ولا يقف عند غاية.. وليس ما أوردناه عنها هنا فى هذا الكتاب إلا قطرة من محيط..

ولقد ألف كثير من الفلاسفة والحكماء منذ قرون فى موضوع النفس كتباً ومجلدات تعدّ بالآلاف. وما زال الكتاب والفلاسفة والمفكرون فى كل عصر يكتبون، ومع ذلك فلن يصلوا إلى فهم النفس البشرية أكثر مما بيّنه الله تعالى عنها فى كتابه العزيز. حيث إن

(١) كتاب «الروح لابن القيم»، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ص ١١٦/١١٧.

العقل الإنساني مهما أوق من علم فلن يصل عن طريق النظر والتفكر إلى معرفة النفس الحقيقية والدليل على ذلك اختلاف علماء النفس والمفكرين في نظرتهم إليها.

ولا شك أن موضوع النفس - مع ذلك - جدير بالبحث والدراسة لا سيما إذا أدركنا توجيه الآية الكريمة لذلك العالم :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

ومن دراسة النفس حسب المدارس القديمة التي كان الإغريق من أهم واضعي أسسها وبخاصة أفلاطون - كما أسلفنا القول - أخذ فلاسفة العرب وغيرهم من علماء الغرب من شتى الأمم، الكثير من هذه الأبحاث.

وظلت طويلاً تدرس على مدى العصور والأجيال حتى القرن التاسع عشر حينما ظهر في الغرب علماء من أمثال وليم جيمس وماكدوجال وغيرهما، ووضعوا هذه الدراسات مناهج مرتبة ومنظمة، وجعلوا منها علماً قائماً بذاته هو علم «السيكولوجيا» أي «علم النفس»، ووضعوا له تعريفين :

أولهما: التعريف الاتعالي التقليدي الذي يكاد يكون عالمياً إلا وهو علم دراسة حوادث النفس. فالخلق البشري مكوّن من جسد وروح. وكما أن علم وظائف الأعضاء «الفيزيولوجيا» يصف حوادث الجسد ومحاول تفسيرها، فكذلك علم النفس يصف حوادث النفس

من حركات وصور وأفكار وعواطف وغيرها ويحاول تفسيرها.

وأما التعريف المتأخر فقد اقتصت به المدرسة السلوكية، وهو علم دراسة السلوك البشرى أو دراسة الأعمال البشرية. وعلم النفس فى رأى هذه المدرسة لا يفعل أكثر من وصف أعمال الجنس البشرى بدقة شأنه فى ذلك شأن عالم الحيوان الذى يصف سلوك النمل مثلاً.

وكان من أصعب الأمور للأقدمين من الفلاسفة أن يفهموا النفس فهماً صحيحاً لأنهم كانوا لا يفهمون المادة فهماً صحيحاً. وكانوا يقسمون المادة إلى أربعة عناصر: الماء، والهواء، والنار، والتراب. ولكن تبين فى العلم الحديث غير هذا وأن المادة لا تنتهى حتى بالذرة. بل إن هناك نظرية تقول بأن المادة شعاع متحرك^(١) وأن هناك من الناحية الرياضية أجساماً غير مادية تعلقو على مستوى الحواس، وأن هذه الأجسام غير المادية تتداخل فى الأجسام المادية حتى بالنسبة لأجسامنا الخاصة. وهذه الأجسام غير المادية يطلق عليها الآن وصف الأجسام الأثيرية كما يطلق عليها فى علم الروح المعاصر «النموذج» أو «المثال الأصيل» Arch Types. وهذه النماذج المطابقة للجسد المادى تحمل خصائص النفس من غرائز وميول، كما تحمل الوعى والروح، وترتبط بينهما فى إطار يمثل العنصر الباقى أو الخالد فى الإنسان أو كما وصفه «يونج» Yung بأنه الإنسان السماوى، أى

(١) نظرية الدكتور مشرفة وإشتاين.

العنصر الخالد أو الموهوب للخلود في الإنسان، وهو حامل شعلة العقل والروح^(١).

وكلمة «بسيكولوجى» Psychology يونانية مركبة من كلمتين، الأولى Psych «سايك» ومعناها «النفس» والثانية «لوجى» Logy، ومعناها «العلم». ولما كانت هذه التسمية تنطبق على هذا العلم انطباقاً جيداً حوفظ عليها حتى اليوم.

«وأخذت السيكولوجى تتطور على أيدي فرويد وتلاميذه وأدخلوا عليها اكتشافات علمية جديدة. وكانت بدورها موضعاً للمناقشة، وخرجت منها آراء جديدة على أيدي أدلر، ويونج، وريشز، وغيرهم، بعد أن ظل علماء النفس طويلاً فيما سلف يتجاهلون التنويم المغنطيسى لأنهم لم يعلموا أين يضعونه من إطار معارفهم. وبعد أن ظلوا طويلاً وهم يكادون يحسبون أنهم غير مطالبين ببحث الظواهر العقلية التى لا يمكن اعتبارها واعية، مثل الأحلام، والهستيريا، والجنون، والتنويم المغنطيسى»^(٢).

وأصبح لهذا الموضوع مدارس مختلفة ومذاهب متعددة، وعلومًا

(١) راجع كتاب «متصل الإنسان روح لا جسد» للدكتور رءوف عبيد، الجزء الأول طعة رابعة ص ٨٤٤ - ٨٨٩.

(٢) عن كتاب «النظرة العلمية» تأليف برتراند راسل، تعريب الدكتور عثمان نوية ص ١٦٥.

فرعية شتى. فهناك: علم النفس الفردي، والستريوى، والاجتماعى والجنائى، والصناعى، والعملى، وما إلى ذلك من بحوث فى الشخصية والذكاء وملكات النفس إلخ.. ومع ذلك فما يزال التطور العلمى حتى هذه اللحظة سائرًا فى طريقه سيرًا حثيثًا ويدخله فى كل يوم كشف جديد. وما يزال العلماء فى بداية البحث وعلى عتبة الكشوف، وما تزال آيات الله الرائعة الخالدة فى أعطاف هذه النفس العجيبة..

ومن هذه المدارس المتطورة فى العصر الحديث ظهر علماء روحيون تميزوا بين السيكولوجى Psychology (علم النفس)، وبين السييك Psychic Science (علم الروح). وقالوا إن الأول يشمل النفس عامة من جميع نواحيها، ويبحث عن القواعد الأصلية لحياة العقل وعملياته وصورها، ومظاهرها المتعددة؛ بينما يختص الثانى بموضوع الروح وأسرارها وكنهها وخلودها.

وكانت خطوة جريئة للأمام من بعض العلماء النفسيين فى طريق التسليم بما وصل إليه بحاث الروح من أن مادتق الباراسيكولوجى وما وراء الروح هما الوسيلة المعترف بها علميا للبحث فى الروح، وفيما يتصل بخصائصها وملكاتاها واستقلالها عن الجسد المادى، و «احتمال» بقائها بعد موت هذا الجسد.

فلقد كان هؤلاء العلماء - من قبل - يقفون موقفًا عدائيا صريحًا

من علم الروح ومن نتائجه الإيجابية، فأصبحوا يقفون الآن موقف التسليم الصريح، أو الحياء الصريح، بعد أن ظهر بجلاء صحة ما شاهدوه من أن نتائج البحوث الروحية قد أصبحت حقائق علمية مترابطة فيما بينها، وفي الوقت نفسه مرتبطة بحقائق الفلسفة، بل أيضا بحقائق العلوم الأخرى وثيق ارتباط. تستوى في ذلك حقائق علمى النفس والأخلاق مع حقائق الفيزياء والرياضة.

أما وقد اجتذبتنا الحديث إلى ذكر الروح، وهو الجزء الثالث واهام من تكوين الإنسان فلا مندوحة من أن نلمّ به إلمامة سريعة مسترشدين برأى علماء الروح فيما يختص بموضوعه بعد أن عرفنا ما فيه الكفاية عن النفس ومظاهرها وما قيل فيها من جميع نواحيها.. وليكن موضوع «علم الروح» هو موضوع حديثنا في كتاب خاص آنجر.. فالروح ليست أقلّ شأنًا من النفس في أهميتها.. وإذا كانت النفس كما قلنا أصبح لها علم خاص يدرس في المدارس والجامعات. فالروح أيضا أصبح لها في معظم الدول الغربية معامل خاصة بها وكراسى في الجامعات، وجمعيات علمية كبيرة معترف بها في جميع أنحاء العالم.

والروحية وحدها هي التي تستطيع أن تطلع الوجود على حقيقة النفس وعجائبها وعمقها وإحاطتها وسيطرتها على الجسد، وسموها أو انحطاطها، وتصرّفها المطلق في المادة..

ولقد تحدّث في ذلك كثير من الفلاسفة والصوفية الكرام في كل
أمة، وبينوا أن النفس حينما تصفو وترق وتلطف تحدث من التصرفات
العجيبة في المادة ما يعتبر خرقاً لقوانين المادة التي ألفها الناس.

المراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - حياة الحيوان للدميري.
- ٣ - إزالة اللبس عن حقيقة النفس للسيد إدريس بن الشريف الحسيني العلوي.
- ٤ - الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين.
- ٥ - دراسات في الفلسفة الإسلامية : للدكتور محمود قاسم.
- ٦ - في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام : للدكتور محمود قاسم.
- ٧ - فصوص الحكم : للشيخ محي الدين بن عربي.
- ٨ - بلوغ الأرب : للألوسي.
- ٩ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : للقزويني.
- ١٠ - الثمرة المرضية : للفارابي.
- ١١ - المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية : للشيخ محمد حسنين مخلوف.

- ١٢ - الحياة الأخرى : للدكتور عبد الرزاق نوفل .
- ١٣ - راجا يوجا : للأستاذ حسن حسين .
- ١٤ - تهذيب الأخلاق : لابن مسكويه .
- ١٥ - فلسفة الأخلاق في الإسلام : للدكتور محمد يوسف موسى .
- ١٦ - البصائر والزخائر : تحقيق أحمد أمين والسيد صقر .
- ١٧ - المقابسات : تحقيق حسن السندوي .
- ١٨ - أبو حيان التوحيدي (سلسلة أعلام العرب رقم ٣٥) :
للدكتور زكريا إبراهيم .
- ١٩ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ٢٠ - أحوال النفس : تحقيق لدكتور أحمد فؤاد الأهواني .
- ٢١ - هدية الرئيس للأمير : لابن سينا : تحقيق إدوارد كريلوس
فنديك .
- ٢٢ - معارج القدس في مدارج معرفة النفس : للغزالي .
- ٢٣ - فلسفة الأخلاق : للشيخ محي الدين بن عربي .
- ٢٤ - إخوان الصفا : للدكتور جور عبد النور .
- ٢٥ - رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها : لابن سينا .
- ٢٦ - قلائد العقيان ووفيات الأعبان : لابن خلكان .
- ٢٧ - مقالة مختصرة في النفس ابشرية : لابن العبري : تحقيق الأب
لويس شيخو اليسوعي .
- ٢٨ - شذرات الذهب : لابن نعمان .

- ٢٩ - طبقات الأطباء : لابن أبي أصيبعة.
- ٣٠ - السهروردي (سلسلة نوابغ الفكر العربي) : للأستاذ سامي الكيالي.
- ٣١ - قصيدة النفس لابن سينا : شرح العلامة زين الدين عبد الرؤوف المناوي.
- ٣٢ - كتاب الروح لابن القيم الجوزية.
- ٣٣ - الله : للأستاذ عباس محمود العقاد.
- ٣٤ - سر الحياة في النفس والإنسان : للمسعودي.
- ٣٥ - الطاقة الروحية : لهنري برجسون : ترجمة سامي الدروبي.
- ٣٦ - اليوجا ينبوع السعادة : للأستاذ عباس المسيري.
- ٣٧ - العقل منبع الحكمة : دار الفكر العربي.
- ٣٨ - الأحلام والرؤى (سلسلة اقرأ). للمؤلف.
- ٣٩ - الروح والخلود (سلسلة اقرأ) للمؤلف.
- ٤٠ - معالم الطريق إلى الله : للسيد محمود أبو الفيض المنوفي.
- ٤١ - لمع اليقين في الكشف عن مناهج الفيضيين : للسيد أبو الفيض المنوفي.
- ٤٢ - مفصل الإنسان روح لا جسد : للدكتور رؤوف عبيد.
- ٤٣ - النظرة العلمية : لبرتراند راسل : ترجمة الدكتور عثمان نويه.
- ٤٤ - التفسير القرآن للقرآن : للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

- ٤٥ - تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها للدكتور نجيب بدوى.
- ٤٦ - نشأة الفكر انفسى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار.
- ٤٧ - مدرسة الحكمة للدكتور عبد الغفار مكاوى.
- ٤٨ - حضارة الإسلام ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد.
- ٤٩ - قصة الفلسفة اليونانية للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود.
- ٥٠ - أفلوطين عند العرب للدكتور عبد الرحمن بدوى.
- ٥١ - على هامش التاريخ المصرى القديم للأستاذ عبد القادر حمزة.
- ٥٢ - النهج القويم فى تاريخ شعوب الشرق القديم.
- ٥٣ - الخلود فى اثرث الثقافى المصرى للدكتور سيد عويس.
- ٥٤ - المظاهر الحضارية للأستاذ سليم حسن.
- ٥٥ - فجر الضمير لجيمس هنرى ستيد ترجمة سليم حسن.
- ٥٦ - مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة لأدولف أرمان وهرمان رانكه.
- ٥٧ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى.